رجاء النقاش

بداية تحول كبير

بعد حرب ٥ يونيو (حزيران) سنة ١٩٦٧ كان العرب يحركهم الامل في نشوب القتال مرة اخرى على الجبهات العربية ، لـرد العدوان الاسرائيلي ، واذكر انني حضرت جلسة مع بعض الاصدقاء من الادباء والمثقفين مع المستشرق الفرنسي الكبير « جاك بيرك » ، وساله واحد منا عن رأيه في الموقف فقال : اذا انتصر العرب في الرد على العدوان الاسرائيلي فانني أشعر بالتفاؤل كانسان ... واذا انهزموا فاني متفائل كمؤرخ !

والحقيقة ان كلمة جاك بيرك المستشرق المحب للعرب والمؤمن بقضيتهم .. هذه الكلمة تعتبر من اجمل واصدق ما سمعت في التعليق على الصراع بين العرب واسرائيل ..

ومعنى كلمات المستشرق الفرنسي ان : العرب اذا انتصروا في معركتهم العاجلة ضد اسرائيل فان هذا النصر يدعو للتفاؤل ، اما اذا لم ينتصروا ذلك الانتصار السريع .. فان التاريخ يدعو الى التفاؤل .. ذلك لان اسرائيل تقف ضد حركة التاريخ ، بينما يقف العرب ، بعدالة قضيتهم ، مع حركة التاريخ ..

اسرائيل تقوم على احياء كل الافكار والمواقف التي يؤكد التاريخ انها في طريقها الى الزوال .

بينما يحمل العرب في اعماق موقفهم وتكوينهم الحضاري كل العناصر والافكار التي يؤكد التاريخ انها يمكن ان تنتصر بل ويجب ان تنتصر ..

اسرائيل تقوم على اساس ان ابناءها هم « شعب الله المختار » وهم افضل الناس في العالم .

وقد اكدت كل الافكار الكبرى التي ظهرت منذ آلاف السنين على هذه الارض ، ان هذه الفكرة خاطئة .. وانه لا فضل لانسان على انسان الا بشرفه وقيمته ومساهمته في الاضافة الى الحياة والمجتمع ..

ولو كان بالامكان ان تنجح هذه الفكرة لنجح هتلر . فقد كان هتلر هو الآخر يؤمن بأن « الجرمان » هم سادة البشر ، وهم صانعو الحضارة ، بينما الآخرون هم مدمرون للحضارة او على احسن الاحوال فانهم ناقلون للحضارة .

وكان هتلر يريد ان يضع أحذية الجرمان فوق رؤوس العالم كله ، وقد احدثت حركته زلزالا عالميا لا شك فيه .. ولكن هذه الفكرة الخاطئة قد لقيت مصرعها لانها فكرة خاطئة ، وقد دفع العالم ما يقرب من مائة مليون من البشر ليرد على هذه الفكرة الخاطئة .. ورضي العالم بهذا الثمن الغالي ليثبت ان حكاية « الانسان المختار المتميز عن غيره من البشر » هي خرافة واكذوبة ...

والحركة الصهيونية في جوهرها لا تزيد بحال من الاحوال عن تجديد للحركة النازية .. كانت النازية تؤمن بتفوق الانسان الجرماني وتعتبره سيدا على جميع الاجناس البشرية ، والصهيونية تؤمن بتفوق الانسان اليهودي وتعتبره سيدا يجب ان يمشي على جثث العرب غير المتحضرين كما مشى المهاجرون الاوروبيون على جثث الهنود الحمر في القارة الاميركية البكر بعد اكتشافها واكتشاف ما فيها من كنوز .

وكان اليهود يرون نفس الرؤية : كانهم يرون في الوطن العربي قارة مليئة بالثروات والخيرات وان الانسان الذي يعيش فوق هذه الارض لا يستحق ما في الارض من نعم وخيرات وكنوز .

ولكن اليهود اخطأوا في تفكيرهم ... كما اخطأ النازيون من قبل ..

والغريب الذي يدعو الى التأمل : ان النازيين صبوا نقمتهم يوم انتشرت حركتهم في اوروبا على اليهود ... وكان هتلر يقول انه يكره شكل اليهودي ورائحته وسلوكه ، ويعتبره اقذر المخلوقات البشرية .

وعندما تخلص اليهود بمساعدة العالم كله من النازية جاءوا ليكرروا نفس الدور النازي ولكن مع العرب .

ويذكرني هذا الموقف بقصة شهيرة قدمتها السينما الاميركية في فيلم ناجح ، واسم هذه القصة « ... من الذي يأتي على العشاء » . وتقوم القصة على تصوير تجربة حب بين شاب زنجي وفتاة بيضاء . ويلقى هذا الحب معارضة من اهل الفتاة ... ولكن اكثر الاصوات اعتراضا على هذا الحب كان صوت « المربية الزنجية » التي تعيش مع الاسرة البيضاء .

كانت هذه المربية الزنجية تستنكر اشد الاستنكار ان يفكر شاب زنجي في حب فتاة بيضاء ... لماذا ؟ لان هذه المربية الزنجية قد آمنت وتسممت بوجهة نظر اعدائها ومضطهديها ... لقد تسممت بفكرة محددة هي ان الزنوج أقل شانا وقيمة من البيض ... وهي تعتبر هذه الفكرة سليمة وصحيحة ، ومن هنا لا يجوز للزنجي الذي ينتمي الى الجنس الاسود ... لا يجوز لهذا الزنجي ان يفكر في المساواة الكاملة بينه وبين الجنس الابيض .

ووجه الشبه هنا هو ان اليهود قد تسمموا بفكرة الذين اضطهدوهم وآمنوا بهذه الفكرة اشد الايمان .

انهم مثل النازيين الذين يضطهدون العرب لان العرب جنس أقل قيمة وأقل صلاحية للحياة من اليهود المتفوقين المتحضرين .

وزعماء اليهود الكبار يعبرون عن هذا الموقف تعبيرا مباشرا .. واذكر انني قرأت في دراسة عن « بن غوريون » انه طول ما عاش في فلسطين لا يعرف كلمة واحدة من اللغة العربية لشدة كراهيته للعرب ، رغم انه تعلم الاسبانية ليقرأ بها رواية سرفانتس العالمية « دون كيشوت » .

على ان اليهود اذا كانوا يقيمون دولتهم اليوم على اساس تفوقهم على الشعب العربي ، وهي فكرة خاطئة ، ولا بد ان تلقى في نهاية الامر مصرعها التاريخي ، كما حدث للنازية من قبل ... اقول ان اليهود لا يكتفون بهذه الفكرة الخاطئة المعادية لكل الافكار الانسانية الكبرى ، بل انهم يقيمون بناء مجتمعهم على اساس من افتراض « تفوقهم العسكري الدائم » ، وهم يعتزون بانهم قد هزموا العرب في كل الحروب التي خاضوها منذ ١٩٤٨ الى اليوم .

وهذه فكرة خاطئة ولا يمكن ان يقبلها التاريخ ، وسوف تلقى هذه الفكرة مصرعها التاريخي ايضا .

ولست اشك في ان المعركة الراهنة ، معركة اكتوبر العظيم سنة ١٩٧٣ ، سوف تكون بداية لهذا التحول في المجال العسكري بالنسبة لاسرائيل . ان الانتصار العسكري المؤقت لاسرائيل لا يمكن ان يقلب حقائق التاريخ ، ولقد كان على العرب ان يفهموا اسرار ضعفهم العسكري امام اسرائيل حتى يتحول هذا الضعف الى قوة حقيقية .

وكانت اسباب الضعف العسكري دائما واضحة :

في حرب ١٩٤٨ كانت الرجعية تقود المعركة ... تتحدث عن فلسطين وعينها على مصالحها الخاصة ... فهذا حاكم يريد جزءا من الارض الفلسطينية ليزيد حجم مملكته التي تعيش تحت سلطانه ... وهذا حاكم يريد ان يتخلص من المشاكل في بلده ـ كما فعل فاروق ـ فارسل الجيش الى فلسطين لعله بذلك ينجو من ثورة الشعب والجيش ... ولا يمكن لمثل هذه الرجعية ان تنتصر في معركة كبرى من هذا النوع .

وفي ١٩٥٦ لم يكن أحد يتصور ان يجد الجيش العربي المصري نفسه في مواجهة دولتين كبيرتين هما فرنسا وانكلترا بالاضافة الى اسرائيل .

وفي ١٩٦٧ كانت المفاجاة سببا رئيسيا للهزيمة ... وكان العرب في أغلب الظن يتصورون ان الضمير الدولي لا يمكن ان يسمح لاسرائيل باكثر مما اخذته قبل يونيو ـ حزيران ـ ١٩٦٧ .

وكان هناك اخطاء عربية كثيرة في التفكير والتنظيم والسلوك جعلتنا نسقط منذ الضربة الاولى ...

ولكن الشعوب تتعلم وتستيقظ وتاخذ العبر والدروس .

ومن الصعب ان تعيد الاخطاء نفسها .

والعرب معهم سلاحهم القوي الحاسم الذي يمكن ان تنبع منه كل الاسلحة الصحيحة القادرة ... هذا السلاح هو انهم اصحاب قضية عادلة .

اما اليهود فهم اصحاب قضية غير عادلة . وهذا بالضبط ما يعنيه المستشرق الفرنسي جاك بيرك بكلمته الرائعة حين يقول :

« حتى لو انهزم العرب فانني متفائل كمؤرخ » . نعم ... لان القضية العادلة لها النصر في النهاية كما يؤكد سير التاريخ .

واذا عدنا مرة اخرى الى أخطاء اليهود التاريخية فاننا نجد في تحصنهم حول تفوقهم العسكري ما يفسر لنا قولا آخر لمفكر يهودي هو « ماكسيم رودنسون » ... يقول رودنسون : ان اليهود لديهم نزعة انتحارية تاريخية .

وتفسير هذه الكلمة هو انهم يضعون انفسهم دائما في مازق حضارية تؤدي بهم الى الانتحار او ما يشبه الانتحار . فاذا كان وجودهم اليوم في فلسطين والاراضي العربية الاخرى معتمدا على التفوق العسكري ... فماذا يحدث لهم اذا استفاد العرب من أخطائهم القديمة وسيطروا على قوتهم العسكرية وتفوقوا على اليهود ؟ ان هذا الموقف ـ الذي لا بد ان يحدث ـ سوف يؤدي باليهود الى مازق تاريخي يشبه الانتحار .

ان أي دراسة لما تدعيه اسرائيل فكريا وحضاريا وما تبني عليه وجودها سوف يخرج بنا الى نتيجة واحدة هي ان اساس اسرائيل كله خطا في خطا .

هذه هي الافكار الاساسية التي تقوم عليها اسرائيل والحركة الصهيونية ، وكلها افكار خاطئة ترفضها حركة التاريخ الرئيسية .

دولة تقوم على اغتصاب شعب آخر .

ومجتمع يدعي ان له حقوقا تاريخية وحقوقا دينية في الارض العربية ... وليس له حقوق تاريخية ولا حقوق دينية بما يسمح له بطرد شعب باكمله والحلول محله .

انني أقصد من هذا الاستطراد التاريخي ان القي ضوءا على الواقع الراهن .

فاسرائيل تعزز جذورها في الاخطاء التاريخية والفكرية والانسانية .

بينما يعزز العرب جذورهم في مواقف سليمة وافكار صحيحة وقضايا عادلة مهما كانت هزائمهم واخطاؤهم الجزئية في حق انفسهم .

ومن هنا يكون منطق التاريخ في صف العرب ، لانه في صف الصواب والعدالة ، وليس في صف الخطأ والانحراف والاضطهاد للبشر .

ومن الغريب ان يكون العرب بالذات هم اكثر الشعوب الذين عاملوا اليهود معاملة انسانية كريمة خلال مراحل التاريخ المختلفة .

ففي الحضارة الاسلامية كان اليهود يحتلون مكانهم كافراد وجماعات حسب كفاءتهم وقدرتهم على المساهمة في التقدم .

وفي التاريخ الحديث كان اليهود يعيشون في شتى اجزاء الوطن العربي في أمان واحترام يلقونه من الجميع .

وفي سنة ١٩٢٤ قام سعد زغلول زعيم ثورة مصر وبطلها في ١٩١٩ بتاليف اول وزارة وطنية ، وكان من بين اعضاء هذه الوزارة « يوسف قطاوي باشا » اليهودي المصري الذي كان وزيرا للمواصلات ثم وزيرا للمالية .

وفي جامعة القاهرة وهي أقدم جامعة عربية حديثة كان هناك استاذان كبيران يلقيان كل الاحترام والتقدير من العرب هما : اسرائيل ولفنسون وكان يسمي نفسه باسم مستعار هو « ابو ذئيب » و « بول كراوس » ..

وهكذا ... فالعرب لم يرفعوا سيف الاضطهاد ابدا ضد اليهود ، ولم يغلقوا امامهم باب الاندماج في المجتمع العربي بصورة سليمة . ومع ذلك فالعرب مطلوب منهم ان يكونوا ـ برضاهم ـ ضحايا المؤامرة الصهيونية الاستعمارية المشتركة .

ولم يكن بالامكان ان يتم هذا الامر ... ولا كان بالامكان ان يستمر اذا تم . والموقف الراهن الذي تمثله معارك اكتوبر العظيمة على جبهة مصر وجبهة سوريا هو البداية السليمة للرد على كل الاخطاء التي وقعت فيها اسرائيل منذ زمن طويل بمساندة الاستعمار ومساندة اخطاء العرب ضد انفسهم .

فاسرائيل تمثل مجموعة من القضايا الخاسرة وغير العادلة .

والعرب يمثلون مجموعة من القضايا الصحيحة والعادلة .

والتاريخ لا بد ان يكون في صف اصحاب القضايا العادلة ، وخاصة اذا عرفوا كيف يدافعون عن هذه القضايا ، وآمنوا بها ايمانا صحيحا لا ارتباك فيه ، وعرفوا كيف يفهمون الواقع الذي يحيط بهم على حقيقته ..

وقد ادرك العرب بعد تجارب مريرة ما ينبغي ان يدركوه .

ادركوا ان قضيتهم عادلة حتى في جذورها التاريخية القديمة .

وادركوا ان العدالة وحدها لا تكفي للانتصار وحماية الحقوق.. فلا بد ان يكون العادلون اقوياء ومدججين بالسلاح .

ان العدالة الرقيقة الوديعة المثالية لم تعد تقنع احدا ... ولا حتى اصحابها .

ولا بد للعدالة ان تكون شجاعة وان تتصدى لمن يريدون تشويه وجهها الجميل .

ومن حق العرب ان يتفاءلوا ... لانهم في الواقع يقفون في الموقع السليم والصحيح ، رغم ما تعرضوا له من ضربات وهزائم .

من حقهم ان يتفاءلوا لان التاريخ معهم .

اما الذين يقولون ان هذه الحرب هي تمثيلية فهم في اقل القليل مخطئون . ان الدماء لا يمكن ان تكون جزءا من تمثيلية . عندما تنطلق الرصاصة الاولى وتسقط القطرة الاولى من الدم ... عندها لا يمكن ان يكون الامر لعبا او مسرحية من اخراج « كيسنجر » او من هم اقوى منه ...

وفي اعتقادي ان معارك اكتوبر العظيم سوف تكون بالدرجة الاولى درسا للعرب انفسهم قبل ان تكون درسا للاخرين ، فالهزيمة الحقيقية بعد ١٩٦٧ كانت في الحقيقة قد لحقت بنا في اعمق اعماق نفوسنا لا على جبهات القتال .

كنا قد فقدنا الثقة العادية بالنفس . كنا نشعر بالتهيب ، وكنا نشعر ان أي حركة من جانبنا سوف تلقى ردا عنيفا من العدو .

كانت عوامل التدمير في داخلنا وعوامل البقاء تتعطل .

ولم يكن شيء من هذا صحيحا ... ولم يكن بالامكان ان يستمر.

ان القضية الآن هي ان نتذكر الحقائق الرئيسية وان نؤمن بها ونثق فيهـا :

علينا ان نتذكر ان فلسطين عربية بالواقع والتاريخ معا .

وعلينا أن نتذكر ان العرب مائة مليون ، وعلينـا ان نتذكر ان بيوت السويس المهدمة وان العلم الاسرائيلي الذي كان يرفرف على الضفة الشرقية للقناة كان يستفز قوة الحياة في الارض ... ولقد زرت هذه المواقع عدة مرات بعد ١٩٦٧ وكنت اشعر ان قوة الحيـاة ترفض هذا الواقع الاسرائيلي الموضوع في غير مكانه ...

كنت اشعر ان كل شيء يرفض حتى التراب والصخور .

وكان علينا ان ننتظر لحظـة بداية جديدة ، وقد جـاءت اللحظـة ...

فاذا قالت اذاعة لندن :

ان العرب متفائلون بدون سبب .. فهي تخطىء التقدير .

لان الموقف العربي الاصلي يقف في نقطة عميقة من نقاط التفاؤل التاريخي بالنصر في النهاية .

واذا قال البعض :

انها تمثيلية من اخراج « كيسنجر » ، فان شهداء سينـاء والجولان يقولون لنا باللـون الاحمر : لا ... ان هذا كذب غير معقـول .

وما أصدق الشهداء ...

لان دماء الشهداء ليست ولن تكون دماء تماسيح .

واذا قال قائل :

وأين السلاح الكافي ؟.. فان الاجابة الوحيدة هي ان نقـرأ ما يقوله التاريخ ... من ان نتائج الحروب دائما تكون حسب نـوع المقاتلين لا حسب نوع السلاح ...

البلاغ ١٥ تشرين الاول

الغزوة الثالثة

لا بد للعرب ان ينتصروا في هـذه المعركة التي يخوضونهـا اليـوم ...

وليس للعرب فرصـة للتقدم والمشاركة في بناء الحضـارة الانسانية بدون هذا النصر . وهذه دائما عبرة التاريخ في هذه المنطقة من العالم والتي اصبحت اليوم معروفة باسم الوطن العربي .

فكلما ضعف شعب هذه المنطقة وتخلى بسبب هذا الضعف عن دوره الحضاري زحفت عليه موجة استعمارية لتقتل ارادته وتسيطـر على كل شيء في ارضه وحياته ...

وهنا تنتهي مشاركة هذه المنطقة من العالم في حضارة الانسان وتتراجع الى الوراء .

وعندما يستيقظ شعب هذه المنطقـة ليملأ الفراغ في بلاده بنفسه فانه يطرد الموجة الاستعمارية ، ويساهم في الحضارة مساهمة بارزة متميزة .

وقد تعرضت هذه المنطقة لثلاث غزوات كبيرة :

والباحثون في تاريخ هذه المنطقة من العالم يكتشفون ان المعركة الراهنة هي الحلقة الثالثة من الغزوات التاريخية الكبرى ضد شعب هذه المنطقة .

كانت المعركة الاولى او الغزوة الاولى هي غزوة الاسكندر الاكبر ، فقد عبر الاسكندر البحر الى شواطىء مصر ، واجتاح الشرق ، ومن يومها بدأت السيادة الغربية على المنطقة وانسحق سكان المنطقة امـام الغزاة الوافدين من وراء امواج البحر الابيض المتوسط .

وظلت المنطقة أسيرة لليونان والرومان حتى ظهرت الموجـة العربية الكبرى مع ظهور الاسلام في القرن السابع للميلاد ، وامتدت الموجة الحضارية العربية بقوة واستطاعت ان ترد غـزوة الغـرب الاولـى .

وانطوت صفحة الغزاة في هـذه المنطقة . ويومها بدأ العرب يلعبون دورهم المضيء البارز في تاريخ الانسان .

ثم ضعف العرب وتمزقوا وبدأ الفراغ من جديد يظهر في الوطن العربي .

وعلى الفور ... ونتيجة طبيعية لهذا الفراغ الحضاري جاءت الغزوة الثانية من وراء البحر الابيض المتوسط ايضا .

وكانت هذه الغزوة الثانية هي غزوة الصليبيين ... جـاءوا الينا من الغرب وأقاموا في الـوطن العربي اكثر من مائة سنة ، وأرادوا ان يطفئوا شعلة الحضارة العربية في المنطقة ويفرضوا عـلى الانسان ويحولوا العرب الى تابعين .

وظهر صلاح الدين ليرد العرب ويرد الغزوة الثانية عن طريـق تعبئة القوى الكامنة للامة العربية .. روحيا وماديا .

وبعد انتهاء هذه الغزوة على اثر معركه صلاح الدين العظيمـة بدأت مرحلة جديدة من اليقظه والنهضه والنمو واحترام الانسـان العربي لنفسه ولامكانياته ثم اقبالـه على المساهمـة فـي حضـارة الانسـان .

وأخيرا جاءت الغزوة الثالثة الى الوطن العربي على شكل موجات من فرنسا وانكلترا ... وكانت بداية الغزوة هي الحمله الفرنسيـة على مصر سنة ١٨٩٨ ، وظلت هذه الغزوة من يومها تأتي الينا فـي شكل موجات متتابعة حتى استقرت في شكل « دولة اسرائيل » .

الغرب الاستعماري من وراء دولة اسرائيل يريد مرة اخرى القضاء على هذه المنطقة وتحويلها الى منطقة تابعة ، على تحويل الانسـان العربي الى انسان من الدرجة الثانية .. يخدم الغرب ، ويقدم اليه البترول والاسواق ، دون ان يكون سيدا لمصيره او مساهما اساسيا في خلق الحضارة الانسانية .

ولن تكون لنا حياة حقيقية الا اذا استطعنا ان نقف في وجـه الغزوة الجديدة ونقضي عليها ... لا حياة للعرب ، ولا أمل لهـم ، بدون خوض هذه المعركة الكبيرة والانتصار فيها .

اذا انتصرنا ، ولا بد ان ننتصر ، فسوف يبدأ عصر عربي جديد فيه الكرامة والامل للانسان في ارضنا ، وفيه القدرة على المساهمة الحقيقية في حضارة هذا العصر ...

تماما كما حدث بعد انتصارنا الباهر على الغزوة التي بداهـا الاسكندر وأنهاها العرب تحت راية الاسلام .. وكما حدث في الغزوة الثانيـة التي قام بها الصليبيـون وقضى عليها العرب بقيـادة صلاح الدين ..

وتماما كما ينبغي ان يحدث اليوم تحت راية الوحدة والتقـدم والعدل والحرية .

انها الغزوة الثالثة التي بـدأت بالحملة الفرنسية وانتهـت باسرائيل ولا بد من القضاء عليها لنبدأ الحياة .

ولعل هذه الغزوة الثالثة التي تمثلها اسرائيل هي أهون الغزوات وأقلها خطرا .. لو عرفنا كيف نقرأ التاريخ .

على أن العبرة فـي الغزوات الثلاث ـ مهما اختلف حجمها ـ واحـدة ..

لا بد ان ننتصر على هذه الغزوة لننهض ونتحرر ونتقدم ونتوحد.

ولا نهضة ولا تقدم ولا حرية ولا وحدة بدون هذا النصر .

الاحرار

٢٣ تشرين الاول